فلسفة التحليل النفسي[1]

النفس لغز والتحليل النفسي مفتاحه

اخرج العلامة فرويد نظرية التحليل النفسي Psycho-analysis وطريقة تطبيقها من نحو ثلاثين سنة . واقترح علاجاً نفسيًّا لطائفة من الامراض العصبية . ولكن هذه النظرية على ما فتحتهُ من ابواب الامل في تمهيد سبل جديدة لكشف خفايا النفس ، خيّبت نظر النقاد الذين يحق لهم ان يحكموا في موضوعها ، وهي اليوم معرضة للاهمال بتهمة انها افتراض نظري ليس لهُ أساس علميٌّ سليم يستند اليهِ . بل يقولون انها تجربة خطرة كلَّ الخطر ، وان الشفاء الذي تمَّ بواسطة التحليل النفسي في الامراض العصبية ، لم يحقق من الوجهة الاحصائية ولا من وجهة الدليل السريريّ Clinical على انهُ قد تمَّ حقيقة ولا ما هي نسبة ما تمَّ منهُ الى ما لم يتمَّ

يضاف الى ذلك ان متخرجي مدرسة فرويد في التحليل النفسي الذين احرزوا الشهادة التي تخوّلهم ممارستهُ يعوزهم التعليم الطبي والمرانة ، اللذان يمكّنانهم من فهم الاضطرابات العصبية ، دع عنك تشخيصها ومعالجتها . ثم ان السماح لرجال لم يتعلموا التعليم الطبي في معالجة الادواء الجسدية والعقلية ، عرضة للمساوىء والمفاسد والتدجيل ، وهو خطر على الصحة العامة . وكثير من الاطباء الذين بحثوا في حسنات التحليل النفسي وامتحنوها يرون ان ما يدعيه رجال هذه المدرسة النفسية ، مغالىً فيهِ شديد المغالاة

ان منشأ النظرية الفرويدية هو ان الاضطرابات النفسية — من عقلية وعاطفية — والاضطرابات الجسدية كذلك ، تنشأ في كثير الاحوال ، من اسباب نفسية لا من اسباب جسدية . فقد كشف فرويد وهو يبحث ويجرّب التجارب بالتنويم المغناطيسي في عيادة الدكتور شاركو Charcot بباريس ان المرضى المصابين بالهستيريا ، اذا نوموا بفعل التنويم المغناطيسي ، كشفوا احياناً من تلقاء نفوسهم ، عن طبيعة اصابتهم واسبابها . ولما كان فرويد نفسهُ غير بارع في شؤون التنويم المغناطيسي ، شرع يحاول ان يكشف عن طرق ووسائل اخرى ، لينفذ بها الى العقل الباطن . وكان يعتقد انهُ يستطيع ان يشفي مصاباً من هذا القبيل بنقل سبب العلة من العقل غير الواعي الى العقل الواعي . لانهُ اذا ادرك المصاب طبيعة اصابتهِ واسبابها ، زال اولاً خوفهُ وقلقهُ واضطرابهُ ، فيزول النزاع بين الذات الواعية ، والذات غير الواعية وتنتصر الاولى على الثانية فتتم لمصابنا نعمة الشفاء . وقد اطلق على مجموعة الافكار المشتركة التي تسبب الداء او الاضطراب ، بالمركّب او العقدة . وهما تعطيان فيهما معنىً من معاني

(١) للدكتور فوكس من البسيحتك اميركان بتصرف قليل

اللفظ الاصلي Complex . وبعد بحث تجريبي في مصابين بالهستيريا وشديدي توتر الاعصاب، صرّح ان المركبات الباعثة على هذه الامراض العصبية سببها رغائب جنسية غير تامة النضوج، مكبوتة لا تبدو في مظهرها الطبيعي ، وان هذه الرغائب انفصلت عن تيار الوعي ، فالّفت شخصية او ذاتاً مستقلة عن ذات الانسان العامة ،وان هذه الذات المستقلة في حالة ثورة عنيفة على الذات العادية. وفرويد يعلق شأناً خطيراً على الرغائب الجنسية ويذهب الى ان الرغبة الجنسية التي يدعوها «ليبيدو Libido » هي اساس لكل مطامح الانسان. ثم هو يدعي ان هذه الحالة — اي حالة النزاع بين الذات المستقلة والذات العامة — يمكن ان تشفى ، بربط الذات الثائرة بالذات العامة ، ثم اعفاء الرغائب غير الواعية ، بتحويلها الى ناحية جديدة . ويعرف هذا العمل بالتحويل Transference فاذا قامت عقبة تحول دون تحويل الرغائب ، الى ناحية جديدة كانت العقبة بمثابة المقاومة في علم الكهربائية ، وكان لا بدّ من المثابرة والمحاولة والمداورة في محاولة تخطيها او التغلب عليها

يفتح التحليل طريقين الى درس العقل الباطن او النفس غير الواعية، طريق مجموعة الافكار المشتركة اشتراكاً حرّاً، وطريق تفسير الاحلام

والتنفيس عن الرغائب المكبوتة بطريقة اشتراك الافكار يعرف باسم «كاثاريس» Cathari: اي التطهير او التنصيف من اللفظ اليوناني كاثاروس اي نظف . والمقصود باشتراك الأفكار الحرّ، ما يأتي : ان تداعي الافكار Association of ideas عمل من أعمال الذاكرة. فلا نستطيع ان نذكر شيئاً الاّ ونربطه بشيء آخر او نقابلهُ به . ومعرفة كل انسان هي كل الحقائق التي يستطيع ان يذكرها مضافاً اليها الحقائق التي نسيها او لا يستطيع ان يتذكرها . فاذا حاول الانسان ان يجعل تداعي افكاره ، شعورياً اي خاضعاً لارادته : حاول ان يتذكر حقيقةً مخزونة في الذاكرة ، يربطها بحقيقة اخرى يسهل تذكرها . وفي هذا اللون من التفكير ، يكون توجيه الفكر ، شعورياً ومقصوداً ومسيطراً عليه

ونحن نعلم ان الأفكار والصور الذهنية واحلام اليقظة ، تطفو احياناً على تيار الوعي او الشعور ، من دون ان يبذل اي جهد خاص في ذلك . فاذا استوقفنا هذه الافكار والصور الشاردة ، لحظة من الزمان ، اكتشفنا ان كل فكر وكل صورة ذهنية، طفت على تيار الوعي من دون قصد منا : هو في نفسه، او هي في نفسها،مسلك الى مخبوء من مخابىء العقل الباطن، فهي اذاً تلقي ضوءاً كشافاً على النواحي المظلمة من ذهن الانسان ، المنفصلة عن الذاكرة ، او المجهولة من الذات الشاعرة. وهذا هو المقصود، في مدرسة فرويد، باشتراك الافكار اشتراكاً حرّاً Free association ذلك ان غرضهُ استكشاف العقل الباطن بواسطة سلسلة حلقاتها الافكار الطافية على تيار الشعور ، ومعرفة صلتها بخفايا العقل الباطن

وتحليل النفس عمل لا يتعلمهُ الانسان تعلماً ، لانهُ عمل ذهنيّ طبيعي . فيشرع الانسان في استكشاف نفسهِ في مراحل سهلة الاجتياز . فيدوّن الحقائق المتفرقة التي يكشفها ثم يربط بينها ثم ينشئ منها صورة منسجمة الاجزاء ، تبين لهُ نشأة احوالهِ العاطفية وتاريخها . فالافكار الشاردة والصور الذهنية الطافية من دون ارادة او قصد على تيار الوعي ، واحلام اليقظة ، هي كلها كاحلام النوم ، فيض العقل الباطن الذي يعرب عن رغبة كامنة في الباطن او شعور او اضطراب داخلي . وكل صورة منها ، ككل جزو من الاحلام ، انما هي لفظ من اللغة الرمزية التي يتكلم بها العقل الباطن . وهي تختلف عن لغة العقل الواعي . فالشعور بالبرد ، يوقظ في العقل الواعي انواعاً من الفكر ، تأتلف وهذا الشعور ، مثل « فصل السنة » و « الملابس » و « الاماكن الباردة » و « الوسائل اللازمة لاتقاء البرد » . اما في الحلم — حلم النوم — فالحلم يجيء اولاً ثم يليهِ الشعور بالبرد . خذ مثلاً على ذلك ، رجلاً يأوي الى سريرهِ في غرفة باردة ، وفراش غير دافيء ، فيحلم انهُ متقطع عن العالم على جبل من جبال الجليد . والشعور بالخطر يوقظ النائم ، فيحملهُ شعورهُ بالبرد ، على البحث عن دثار يتدثر بهِ ليدفأ . ولكل انسان لغتهُ الرمزية الخاصة بهِ . ولا يتشابه اثنان . فمحاولة تفسير احلام الواحد برموز الآخر ، عمل لا بدَّ ان يفضي الى الخطاء . من هنا نرى ان محاولة رجل ان يقوم بتحليل نفسي دقيق لرجل آخر ، عمل متعذر . فالمختص بالتحليل النفسي يستطيع ان يرشد لا ان يعلم . انهُ لا يستطيع ان يهضم اكل غيره ، ولا ان يحلل نفس غيره . ومثمة طرائق عديدة لتحليل النفس وكلها تبدأ بترك العقل الباطن يفيض بما يختلج فيهِ من المشاعر والافكار ، ويلي ذلك توجيه محبة الشخص الجنسية الى شخص معيّن . وهذه الناحية من التحليل النفسي ، هي الناحية التي ينبذ بها رجال الدين وجماعة المدافعين عن آداب النفس ، لان المحللين النفسيين ، يوجهون هذه المحبة في الغالب الى اشخاصهم . والامر الذي لم يفهم بعد على صحتهِ ، هو هل يتم الشفاء باستكشاف العقل الباطن ، او باشباع المحبة الجنسية في شخص المحلل النفسيّ ، او بكليهما ؟ !

واذن يرى القارىء ان هذه الدعاوى ، ليست على جانب من الدقة العلمية ، او الاخلاص ، او الادب . اذا كان التحليل النفسي يشفي ، فكيف يشفي ؟ اننا نعلم ان العواطف المضطربة تحدث اضطراباً وقلقاً في وظائف الجسم والعقل ، وان معظم هذه الاضطرابات ينشأ في العقل غير الواعي . والاعراض غامضة ، معظمها من نوع المخاوف الموهومة ، والنزاع الداخلي ، وكبت الشعور ، وشدة الاحساس ، والرغبات النابية ، والحب ، والخجل في الصلات الاجتماعية والعجز عن صبّ الفكر وتوجيههِ الى موضوع واحد .

والمصاب يكون في الغالب ، كثير الاضطراب والهمّ ، لا يستطيع ان يصمد للصدمات التي تنتابهُ ولا ان يحتمل ما في الحياة من اخذ وردّ ، ومدّ وجزر . فهو كئيبٌ دائماً ، متجه

الى نفسه ، اقل شيء يحيّره ويقلقهُ . فاذا كانت الحادثة حادةً ، اصيب بالارق وضعف الشهية وانخفاض ضغط الدم وخفقان القلب واضطراب الغدد والهستيريا والعجز الجنسي والتوق الى تناول المخدرات وضعف النطق او اضطرابهُ وغيرها من الاعراض التي يسفر عنها اضطراب الجهاز العصبي . واسباب هذه الاضطرابات او مبعثها رغائب مكبوتة او محبوسة في العقل الباطن ، تنشىء نزاعاً او تناحراً بين اجزاء الشخصية الواحدة . اي ان الذات الباطنة تكون في حالة ثورة فتتفكك وحدة الذات العقلية والجسدية ، في آنٍ واحد

والشفاء من هذه الحالة ، الباعثة على التعس والشقاء، مشكلة صعبة شديدة التعقيد . ويجب الاقبال على حلّها في حوادة وحذر . فالغرض من كل علاج من هذا القبيل ، يجب ان يكون القضاء على التناحر الداخلي ، واطلاق العواطف المحبوسة المكبوتة، واستنباط الوسائل لتبديلة الرغبات غير المشبعة او تحويلها او تسكينها . وقد ذكرنا ان « الجرح » النفسي هو في العقل الباطن . واذاً فيجب ان يمدَّ رواق العقل الواعي الى ما وراء حدوده العادية ، حتى يضمّ تلك الاجزاء التي كانت مستقلة في العقل الباطن فيدمجها في وحدته الشاعرة . وهذه الخطوة هي الاولى نحو العلاج ، ويمكن خطوها بواسطة التنويم المغناطيسي ، واشتراك الافكار بالمعنى المقصود في مدرسة التحليل النفسي ، او حلّ رموز اللغة التي تتكلم بها النفس غير الواعية في اليقظة او في النوم. فاذا اكتشف المعالج الباعث الاساسي على حالته ، وفهم طبيعة الاضطرابات التي اصيب بها ، روّح ذلك عنهُ ، وحدَّ من الشك الملازم لمخاوفهِ ، فيعود اليهِ جانبٌ من ايمانهِ وثقته بنفسه . ويستيقظ الامل في صدره وما يسير مع الامل من حماسة تمكنهُ من السير نحو الشفاء التام بفضل الاستهواء الذاتي . واذ يشرع المصاب في معالجة نفسهِ ، يجب ان يتمرّن على تحليل النفس ، بتدوين العواطف والمخاوف والرغائب والنواهي والكوابح ، وما يحب وما يكره ، التي تطفو على تيار وعيهِ . ويفضَّل ان يختار غرفة هادئة حيث لا يقلقهُ قلق ، فيدوّن في ورقة امامهُ الاعراض والمخاوف والرغبات . فيأخذ مثلاً رغبة من الرغبات، ويرى ما يتصل بها من الصور الذهنية ، المتسلسلة في نفسه تسلسلاً حرًّا ، فيدوّن كل حلقة من حلقاتها . وقد يلتي تتابع هذه الصور احياناً ما يعيقهُ وما يقطعهُ بلفظة او صورة او فكرة . فليدوّن ذلك وليضع تحتهُ خطًّا احمر ؛ لان ما يقطع تسلسل الصور الذهنية، يشير الى الموانع او الكوابح في الحياة العقلية، اي ما يكبح النفس او يمنعها من الاستسلام الى رغبة من رغباتها

فاذا والى المصاب ذلك ساعة كل يوم مدة ثلاثة اسابيع اجتمعت لديهِ الحقائق الاساسية عن اعماق تلك الذات الباطنة، التي بينها وبين الذات العامة نزاع او تناحر هو منشأ الاضطراب. فاذا اتسعت معرفته بتلك الذات الخفية ، عادت اليهِ ثقتهُ في نفسهِ ؛ الناشئة عن المعرفة ؛ والثقة تجر في اثرها القدرة والسيطرة على النفس . وهذه اول مرتبة من مراتب الشفاء